التّذاوت ومقصدية التبليغ
مدخل تداولي للخطاب النبوي

د. فتيحة بوسنّة

جامعة تيزي وزو

Abstract: The discourse of the Prophet, being a divine revelation transmitted by a human messenger, transcends several pragmatics specifications as regard the notions of subjectivity and inter-subjectivity because the prophet's role goes beyond the persuasion and involvement level, in the discourse construction, towards the transmission and entrenching of His Message, and thus, ensuring its duration and permanence.

مقدمة: إن المادة الأساسية للخطاب هي اللّغة، وأهم ما في اللّغة الذّاتية فـ«عبارة الذّاتية لتسم اللّغة وسما شديدا، مما يجعلنا نتساءل: هل يمكن للغة –لو بنيت بناء آخر- أن تستمر في الاشتغال أو حتى هل نسميها، عند ذاك، لغة؟»[1]. وعليه، لا يمكن تصوّر إنسان بمعزل عن اللّغة، فهي التي ترشده إلى معرفة ذاته، أي أن «الإنسان ينشأ ذاتا داخل اللّغة وعبرها، لأن اللّغة وحدها تؤسس مفهوم «أنا» «ego» في الواقع وذلك فيواقع اللّغة وهو ذاته واقع الوجود (=الكون)»[2].

لقد بقي تفكيرنا –فيما يخص الذّاتية- متأثرا بالفكر الكلاسيكي، فاختزلت الذّاتية في الإحساس الذي ينتاب كل شخص "الإنية". لكن المنظور التداولي أفرغ الذّاتية من امتيازاتها الكلاسيكية، ويمكن الاستفادة في هذا الجانب من التحديدات اللسانية عند " **إميل بنفنيست" Émile Benveniste**، إذ يرجع له الفضل في إرساء مفهوم الذّاتية وإعطائها وضعا لسانيا، فهو يرى «أن الوعي بالذّات لا يكون إلا إذا تم التحقق منه بالنقيض، فأنا لا استعمل ضمير "أنا" إلا عندما أتوجه إلى شخص ما، يكون أنت في خطابي(...) بهذا المعنى أفترض وجود شخص آخر خارج عن ذاتي،

لكنّه يصبح صدى لي أقول له "أنت" ويقول لي "أنت" (...) إن تقاطب الضمائر كما هي في اللّغة، باعتبارها شرطا أساسيا في المسار التواصلي الذي ننخرط فيه، ليس إلا نتيجة تداولية بالكامل»[3] أي أن الوعي بالذّات لا يمكن أن يشعر به الشخص إلا من خلال الآخر، وهو ما يشكل أساس التداول. فنحن كما يقول **جاك فرانسيس (Jaques Francis):** «لا نتكلم أبدا إلا من خلال الآخرين، وليس فقط من أجل الآخرين»[4] ويفهم من هذه العبارة، أنه لا يمكن تصوّر لغة بدون آخر، أي أنّه كما لا يمكن تصوّر ذات بدون لغة، فكذلك لا يمكن تصوّر لغة بدون مخاطَب، فاللّغة لا تتحقق إلا عبره، وهو ما يدعو إلى اعتبار «اللّغة بصرف النظر عن استعمالاتنا المختلفة لها، مسرح محاورة ومواجهة بين الذوات البشرية»[5].

ومن أهم الأسس النظرية التي ينطلق منها هذا التوجه، التمييز بين المخاطَب الخارجي المتعين، والمخاطب المتضمن داخل المكون اللفظي، أي «هذا المخاطَب الذي يستحضره المتكلّم قبل إنتاج خطابه... وبعبارة أخرى، فالمعطيات السياقية التي تتصل بالمخاطب في الواقع المادي تتحول إلى صور وتمثلات ينشئها المتكلّم عن المخاطب، وهي معطيات سياقية متعددة ومتنافرة بحسب طبيعة المخاطِب وهويته وانتمائه الاجتماعي واللغوي والثقافي...»[6]، أي أن المخاطَب هو افتراض يصنعه المخاطِب، وهو ليس مجرد منتهى يوجه له الكلام، بل يُمَحْوِر كلام المخاطِب. ووفقا لذلك، يعد المخاطَب استراتيجيا حجاجية تصنع، لتكوين صورة متكاملة تكون نتيجة ضرب من التفاعل الخطابي بين طرفي العملية الحجاجية»[7].

ومن مظاهر هذا التفاعل، العلاقة الجدلية بين الذّات والآخر، فمن جهة يُسهم المخاطَب في تحقيق المعنى وإنتاج الخطاب، إذ يجب «توفر مخاطَب كمساعد- تلفظ، وكمساعد مسؤول في دلالة الخطاب المتبادل»[8]، ومن جهة أخرى، تتجلّى الذّات عبر الآخر، لهذا يلجأ المخاطِب إلى التنويع من المخاطَب ليحقق أهدافا ومقاصد.

نسعى في هذه الدراسة إلى بيان كيف يمكن لهذه المفاهيم النظرية أن تسعفنا في تحليل خطاب لم يتلفظ به صاحبه ليتحقق كذات خاصة، إنّما أنشئ لتبليغ رسالة لمخاطَب غير محدد الزمان و المكان.

إنّ الخطاب النبوي بما هو وحي الهي يبلّغه بشر رسول يتخطى كثيرا من المواصفات التداولية المذكورة سالفا، فإذا كانت **الذّاتية** بمفهومها التقليدي تعتبر "الأنا" أصل المعنى [9]، وإذا كان **التذاوت** بالمفهوم العادي يرى وجوب تجاوز إطار المتكلّم إلى العلاقة التخاطبية التي عليها أن لا تعود بآثار المعنى إلى المتكلم وحده [10]، فإنّ الخطاب النّبوي يحمل طابع الذّات الإلهية من منطلق أنّها المرسل الأوّل للخطاب، ثمّ طابع الذات النبويّة باعتبار التكليف مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾**[المائدة/67]**.

ويُفهم من الآية الكريمة أنّ دور الرسول (ﷺ) لا يتوقّف عند حد توصيل الرسالة، فقوله تعالى "بلّغ" بالشد إشارة إلى ضرورة تبليغها بكيفية خاصة، تجعل مقاصدها وأهدافها تصل إلى المخاطَب لينذر بها مصداقا لقوله تعالى:﴿هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ **[إبراهيم/52]** أي أنّ توقف الرسول صلى الله عليه وسلّم عند مجرّد إبلاغ الرسالة إلى الطرف الآخر يُبطِل عمله وكأنّه لم يفعل شيئا: "فما بلّغت رسالته"، وبمعنى آخر فإنّ الكفاءة اللسانية لا تكفي لتبليغ الرسالة، بل لابد من توفر كفاءة تواصلية، تتجاوز مستوى إقناع المُخاطَب – الذي يمثل منتهى مقصدية الذات المتكلّمة بالنسبة إلى محللي الخطاب- كما تتجاوز مستوى مشاركة المخاطَب في صنع الخطاب – كما عُرف في المنهج التداولي – إلى جعل المخاطَب يرَسِّخ الرسالة ويبلّغها لتستمر عبر الزمن، وهو أصل عقدي مستمد من الخطاب القرآني في قوله تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[آل عمران/104]**.

ومستمد من الخطاب النّبوي في قوله (ﷺ) في النصوص الآتية:

- عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، أنّ النّبي (ﷺ) قال: ﴿**فإنّ دماءكم وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليُبلغ الشاهد الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أَوْعَى له منه**﴾(**أخرجه البخاري، رقم 67**).

- عن أبي كبشة، عن عبد الله بن عمرو: أنّ النّبي (ﷺ) قال: «**بلّغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**» (**أخرجه البخاري، رقم 3274**).

- عن أبي بكرة (ﷺ) قال: خطبنا النّبي (ﷺ) يوم النحر قال: «... **اللهم اشهد، فليبلّغ الشاهد الغائب، فرّبّ مبلّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض**» (**أخرجه البخاري، رقم 1654**).

ويُفهم من هذه النصوص من جهة، أنّ الخطاب موجه إلى مُخاطَب غير محدّد زمانا ومكانا، وهو ما يُستمد من خلال توظيف الخطاب أسلوب التنكير، وانتقاء لفظة " رُبّ" للدلالة على التعدّد والكثرة، ومن جهة أخرى فاعلية هذا المخاطَب، بحيث يكون أكثر قدرة على تبليغ الرسالة، على الرغم من اختلاف الحقب الزمنية، بل وحتى اختلاف اللّغة والعقيدة، في قوله (ﷺ):

- (...**فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أَوْعَى له منه...** ﴾.
- **(... فرّبّ مُبلَّغ أوعى من سامع...)**

فبلوغ المخاطَب هذا المستوى مقصد أساسي في الخطاب النّبوي، وبدونه لا تتحقق الرسالة ولا تستمر، وهذا التحقق والديمومة يتّبعان استراتيجية تختلف عن كلِّ خطاب آخر، ويمكن تسميتها بـ "استراتيجية التحمل، التّقبل، التمثل"، وتفصيل ذلك كالآتي:

استراتيجية التحمل، التّقبل، التمثل: تنوعت مظاهر اشتغال الخطاب النّبوي؛ ومنها: أن مقصدية الخطاب والهدف منه يتحقق دون أن يصدر الكلام من المتكلّم. فقد يكون المتلفظ بالخطاب المخاطَب، مما يجعله خطابا قائما تستمر رسالته، وإن غاب المتكلّم. ويتم ذلك عبر استراتيجية خطابية تسير على وفق محور أفقي، تبدأ بتحمل المتكلّم للتكليف الذي كان من ثماره تقبل المخاطب لخطابه، ثم، في مرحلة أخرى، يتمثل المخاطَب رسالة المتكلّم حاضرا أم غائبا حيا أم ميتا، وتفصيل ذلك كالآتي:

أ- التّحمل: يقال حملته كذا فتحمله، والمقصود هنا، تحمل الرسل تكليف الله تعالى لهم بتبليغ رسالته، أي القيام بحقها، ويذكر الخطاب القرآني في هذا موقفين هما:

– **موقف من لم يتحمل التكليف:** ولعله المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ **[الأعراف/175]**، وهو تصوير دقيق لعدم تحمل التكليف، فكأن الخطاب جلد ملتبس بلحم مخاطبه وهو ينسلخ منه، ويدل ذلك على العنف والجهد والمشقة، تنبيها على أنّه خطاب ملتبس بفطرة الإنسان ودرع واق له، مما يعني أنّ وجود الإنسان قائم به (أي الخطاب).

– **موقف من تحمل التكليف:** وهو موقف الرسول (ﷺ) وأولي العزم من الرسل، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ **[الأحقاف/35]**، فكما أنّ الانسلاخ عن التكليف يكون بجهد ومشقة، فكذلك تحمل التكليف فيه جهد ومشقة فاصل التحمل من الحمل، ويقال في «الأثقال المحمولة" على الظاهر وفي الأثقال المحمولة في الباطن»(11)، والثقل يحتاج إلى صبر، كما أنّ أصل التكليف من الكلفة أي الجهد والمشقة. فنوح عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاما، لم يكتف فيها قومه بالأعراض عن خطابه، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام، ومثله إبراهيم عليه السلام هُجر وأُحرق، وموسى عليه السلام اتّهم وأبعد، وعيسى عليه السلام عُذِّب وغُولِيَ فيه. ويعرض الخطاب القرآني تجربتهم على

الرسول (ﷺ) وقد انتهت إليه أمانة أداء الرسالة فيضطلع بأكبر عبء كُلِّف به رسول، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ **[المزمل/5]**. فالتكليف هنا أثقل ودرجة تحمله (ﷺ) أشد، يتجلى في جوانب عدة مبينة في الجدول الآتي:

أولو العزم من الرسل	محمد (ﷺ)
بُعِثُوا إلى أقوامهم	بُعث إلى كافة الناس وهو ما يتطلب جهدا مضاعفا في إقناع مخاطبيه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ **[النساء/63]**.
بُعثوا لعصورهم	بُعث عبر الزمن، وهو ما يتطلب استراتيجية خاصة تجعل الرسالة تستمر عبر الأزمنة.
Ø	المطلوب من مخاطبيه تبليغ الرسالة بعد غيابه وهو ما يتطلب إعدادهم إعدادا خاصا لتقبل الرسالة وتمثلها

ومن صور تحمّله (ﷺ) وإصراره على أداء التكليف وصبره على الأذى والتكذيب والتواءات النفوس، ما ورد في آيات كثيرة في الخطاب القرآني، منها قوله تعالى:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾**[الكهف/6]**
- ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾**[ق/39]**
- ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾**[الأنعام/33]**.
- ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾**[النحل/127]**.

فحزنه على موقف مخاطبيه، دليل على أنّه أوتي قدرة على تحمل التكليف والصبر على إعداد مخاطَب يتقبل الرسالة ويبلغها بعد غيابه.

ب- التقبل: لا يمكن لخطاب أن يستمر بغير وجود مخاطَب يملك قابلية لتلقيه، وهو مقصد قرآني يُستشف من قوله تعالى:

- أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ **[يونس/42]**.
- ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ **[الزحرف/40]**.
- ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾**[النمل/80]**.

لهذا لم تستمر رسالة أولى العزم من الرسل بالرغم من أنهم تحملوا التكليف مصداقا لقولهتعالى:﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ **[الجن/28]**

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾**[الأحزاب/39]**،

في حين أنّه عندما توفر للرسول (ﷺ) مخاطَب يملك قابلية لتلقي الخطاب، استمر ولم ينقطع، إذ إنّه لم يثبت تاريخيا أن اقتنع متلق بخطاب وفعل به (فعل بالقول) مثلما حدث مع الخطاب النّبوي، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**[البقرة/285]**، حيث كان يلتزم حدود أمره ويتَّبع المخاطب في أفعاله وأقواله ومعاملاته. فننتقل بذلك من الذّات إلى التّذاوت أي تفاعل وتقارب المتخاطبين (intersubjectivité) ومن ذلك المواقف الآتية:

حدثنا سلمان بن حرب قال... قال عطـــاء: «أشهد على ابن عباس: أن رسول الله (ﷺ) خرج ومعه بلال، فظن أنه لم يُسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه»**(صحيح البخاري، رقم 98)**.

حدثنا إبراهيم بن المنذر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أنّه سأله عن الوضوء مما مست النار؟ فقال: لا، قد كنا زمان النّبي (ﷺ) لا نجد مثل ذلك من الطعام إلا قليلا، فإذا نحن وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا وأقدامنا ثم نصلي ولا نتوضأ» **(أخرجه البخاري رقم5141)**، فيلاحظ في هذه الأحاديث إتباع المخاطَب فعل المخاطِب حاضرا كان أم غائبا.

وعن محمد بن سلام... عن أنس بن مالك (ﷺ) قال: أن الرسول (ﷺ) جاءه جاءٍ فقال: «أُكلت الحمر، ثم جاءه جاء فقال: أكلت الحمر، ثم جاءه جاء فقال: أفنيت الحمر، فأمر مناديا فنادى في النّاس: "إنّ اللّه ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية، فإنّها رجس" فأكفئت القدور وإنّها لتفور باللحم» **(أخرجه البخاري، رقم 5208)**.

فيلاحظ هذه القابلية الشديدة لتلقي الخطاب، حيث يتم الفعل بالقول مباشرة بعد الأمر كما جسدته الآية المذكورة سابقا، ومن ذلك أيضا المواقف الآتية:

حدثنا علي ... خرجنا مع الرسول (ﷺ) إلى خيبر، فلما كنا بالصهباء دعا بطعام، فما أوتي إلا بسُويق، فأكلنا فقام إلى الصلاة فتمضمض ومضمضنا **(أخرجه البخاري، رقم 5139)**.

فالحديث النّبوي خطاب لم يُردَّ، بل بلغ الفعل به إلى حد أنّ المتلقي يفعل ما يفعله الرسول (ﷺ) ويترك ما يتركه، لا فيما يخص الرسالة فحسب، بل حتى فيما يخص الشؤون الدنيوية حرصا منه على التأسي به في كل أموره، تفعيلا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ **[الأحزاب/21]**، وهو ما يبدو جليا من خلال المواقف الآتية:

- عن عبد اللّه بن أبي طلحة، أنه سمع أنس بن مالك يقول: «إن خياطا دعا رسول (ﷺ) لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول اللّه (ﷺ) فرأيته يتبع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ»**(أخرجه البخاري، رقم5064)**.

- عن ابن شهاب قال: حدثني أنس بن مالك (ﷺ): «أنّه رأى في يد رسول اللّه (ﷺ) خاتما من ورق يوما واحدا، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول اللّه (ﷺ) خاتمه، فطرح الناس خواتيمهم» **(أخرجه البخاري، رقم 5530)**.

فهي مواقف تدل على أن اقتناع المتلقي بالخطاب وإتباعه لأوامره بلغ به مدى، جعله يفعل بالقول دون أن يعلم سبب الأمر أو يسأل عن علته وحكمته –إلا في حالات معدودة- إنّه التسليم المطلق والإتباع التام. ولا يُفهم من هذا بأي وجه، أننا أمام انحلال

شخصية المخاطَب في شخصية المخاطِب، إنّما هو تذاوت وليس تذويبا، أي تفاعل وتقارب المتخاطبين لأنّ المخاطَب- كما أشرنا سالفا- يتحمل بدوره مسؤولية الرسالة، وهذا الدور يتضح أكثر من خلال تمثله للخطاب.

ج- التمثل: تعددت مستويات تشكل الخطاب النّبوي، إذ تم بشكل متدرج، فقد نشأ بتكليف من الله تعالى وتشكل بتحمل الرسول(ﷺ) التكليف، وتقبل المرسل إليه خطاب الرسالة، إلاّ أنّ هذا غير كاف ليستمر الخطاب في الاشتغال عبر الزمن، لأنّ إقامة الدين يتطلب إقامة الخطاب، وإقامة الخطاب يتطلب أن يُسهم المخاطَب في ترسيخه، وإعادة إنتاجه، ويحافظ على تواصله واستمراره ولا يكون ذلك إلا "بتمثل الخطاب"، ويعني مصطلح "التمثّل" (Représentation)استحضار موضوع غائب:

re / présent/ation

répétition présence suffixe

فـ «يكاد الاستحضار أن يرادف مفهوم التمثّل، بل إنّه يطابقه في عملية استعادة الأشياء والموضوعات الغائبة عيانيا، أي في خاصية استعادة موضوع غائب راهنا، وكان حاضرا في زمن قبلي»[12]. لكن السؤال المطروح: كيف يتمّ التمثّل؟ أي عبر أية وسيلة يتمّ استحضار موضوعات غائبة؟ اختلف علماء الغرب في تحديد الوسيلة التي يتمّ عبرها التمثّل، إذ يتعلّق الأمر عند بعضهم بـ "الخيال"، أي «أنّ الأفعال المستحضرة (présentifiants)، للتذكر أو الخيال تكرر (تعيد) الإنتاج بطريقتها الخاصة لانعطاء (donation) موضوع كان في الأصل قد وهب للوعي في زمن حاضر»[13]، ويتعلّق الأمر عند بعضهم بـ «التفكير المعتمد على قوّة الذاكرة»[14]، أو تلك «الأفعال الحدسية التي تحيل على شيء غائب فتعمل على إظهار صورة الموضوع في غيبته»[15] ويتعلّق الأمر عند بعضهم بـ «انطباعات وأحاسيس»[16]، فاختلفوا تبعا لذلك حول ذاتية أو موضوعية التمثّل فـ «التصوّر الظاهراتي الذي بلوره "أتباع هوسرل" يهتم

بالتأكيد على موضوعية العَني (هوسرل- ريناخ)، وعلى ذاتية التمثّل (مارتي)، وقد كان تبيّن بوضوح من قبل، أنّ التمثّل لدى فيتنشتاين ومارتي في صورة انطباعات وأحاسيس هو ذو طبيعة ذاتية صرف ولا يشغل وظيفة معرفية... وهنا يجوز لنا تمييز الواجهة الأنطولوجية في التمثّل ذاته عن الواجهة الابستيمية توجه الأولى أنظارنا إلى طرق بناء العالم الخارجي، بينما تشغل الثانية لمعرفة كيف تتوسط اللّغة صلتنا المعرفية بالحياة الخارجية وبالذوات الأخرى وبحياتنا الباطنية»(17). ولئن اختلف منظرو التمثّل إلاّ أنّ معالمه اتّضحت أكثر من خلال ذلك الاختلاف ذاته، أمّا في الخطاب النبوي، يأخذ التمثّل بعدا آخر، حيث يتمّ تحويل الأشياء إلى حدث قولي، أي استحضار خطاب جماعي ينتقل بالتواتر وبتعبير آخر، فقد حافظ المخاطَب على استمرار الرسالة نقية خالصة من الشوائب، عن طريق معايشة الحدث، فيتم استحضار الفكرة واللّغة والأحداث والأشخاص، أي المحافظة على نقل تفاصيل الحدث ومقامه، وهذا يعبر لا على استحضار الحاضر النّبوي فحسب، بل على استمراره وترسخه من خلال الخطاب.

وتبعا لذلك، لا يمكن فصل الذّاتي عن الموضوعي في تمثّل الخطاب النّبوي، إذ إنّ الذّات تدخلت لتنقل شيئا موضوعيا، فالمخاطَب أمام مقام دفعه للتمثّل، من منطلق أنّه تكليف لابدّ أن يؤديه مصداقا لقوله (ﷺ) فيما رواه عبد الله بن عمر: **«بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج...» (أخرجه البخاري، رقم 3274)**. من هنا، جاء تشبيه المخاطب بالزرع، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ **[الفتح/29]**.

وجاء تشبيه مخاطبي الرسل السابقين بالكلب والحمار، في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ **[الأعراف/176]**،وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ **[الجمعة/5]**، فالزرع يتقبل الماء والنور، ثم يعيد إنتاجهما عن طريق ما يسمى بعملية التركيب الضوئي أو التمثيل الضوئي، فيشتد ويخرج ثماره في كل حين، بينما الكلب، لا

يتمثل، فإنْ تَحمِل عليه يلهث أو تتركه يلهث، والحمار يحمل الكتب العظام وليس له منها إلا ثقلها.

والتّمثل في الخطاب النّبوي ليس مجرد وسيلة أو آلية خطابية، كما هو مفهوم عند المنظرين إنّما هو مقصد موجود في أصل الرسالة، لقولهتعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ **[الأحزاب/21]**، أي أنّ على المخاطَب أن يطابق أقوال المخاطِب وأفعاله وكل ملابساته، وهوالمعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا {10} رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ **[الطلاق/10- 11]**. ورد في بعض القراءات أن كلمة "رسولا" تمييز لكلمة "ذكرا"

ويقتضي هذا أن الرسول (ﷺ) يتحول إلى "ذِكر"، ولا يتأتى ذلك إلا بالتمثل عبر الذاكرة ويدل على هذه المطابقة، قوله (ﷺ) فيما رواه حمزة بن أبي حمزة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس: «**إنّما أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم**»[18].

ويفهم من هذا، أن الرسالة بشكل عام، لم تعد تتبع من مجرد مرسلها الأول بل تمثلها المخاطَب، وصار يرويها، فأصبح يُهتدى به كما كان يُهتدى بمرسلها الأول.

ويدل على هذه المطابقة أيضا، ما يرد في كتب الصحاح من حديث للرسول (ﷺ) يتبعه حديث لصحابي، يحمل رقما مواليا لرقم حديث الرسول (ﷺ)، فيتلقى الحديثان، دون شعور بتغير مرسل الحديث، ويُقرأ كأنه مروي عن الرسول (ﷺ).

إنّ توحيد الذّوات مقصد أساسي في الظاهرة الدينية، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ ينقُضُونَ الْمِيثَاقَ {20} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ **[الرعد/20- 21]** يقول ابن عاشور في تفسير الآية: «قيل ما أمر الله به أن يوصل هو قرابة الأرحام وأقول تكميلا لهذا، إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل»[19] ويجد هذا المقصد العقدي، تأكيده في الهدف من الخطاب، والمتمثل في إنشاء تواصل بين الذوات (communication)، والذي يهدف بدوره إلى إنشاء مجتمع مشترك موحد كأنه كتلة

واحدة، ومنه جاءت كلمة (communauté) فأصل كلمة (communiquer)، جاءت من (le commun) أي المشترك، وأن هذه بدورها تتكون من (comme+un)، أي مثل الواحد[20].

يشترك الدين والخطاب إذن، في الهدف ذاته، وهو خلق أرضية مشتركة تتفاعل فيها الذوات، فضلا عن أنّ إقامة خطاب يستند إلى عقيدة مهمتها توحيد الناس يُقوي آليات الوصل فيه كما هو الحال مع الخطاب النّبوي.

وانطلاقا مما سبق، كان تمثل المخاطَب للخطاب النّبوي عبر مستويات أربعة، تهدف إلى تحويل الواقعة النّبوية إلى واقعة لغوية، تُشكل مرجعية مشتركة بين المتخاطبين عبر الزمن، تقي من التشتت والاختلاف، ولعله المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ **[القصص/51]** يقول "الرازي" في تفسير الآية: «وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان وهو وصل البعض بالبعض»[21] أي وصل الخطاب بعضه بعضا، وقد تمّ ذلك في الخطاب النّبوي عبر مستويات أربعة. وتفصيل ذلك كالآتي:

1- وصل القول بالقول: ومن نماذج هذا الوصل، النصوص الآتية:

– عن علقمة قال: «لعن عبد الله الواشمات والمنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فقالت أم يعقوب: ما هذا؟ قال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله وفي كتاب الله»**(أخرجه البخاري، رقم 5595).**

– حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا جبلة بن سُجيم قال: أصابنا عام سنة مع ابن الزبير فرزَقَنَا تَمْرًا، فكان عبد الله بن عمر يمر بنا ونحن نأكل، ويقول: لا تُقارنوا، فإن النّبي (ﷺ)نهى عن القران، ثم يقول: إلا أن يستأذن الرجل أخاه. قال شعبة: الإذن من قول ابن عمر»**(أخرجه البخاري، رقم 5131).**

فالملاحظ في هذين النصين، وصل الراوي قول الرسول (ﷺ) بقوله: (نهى الرسول (ﷺ))، إلاّ أنّ هذا لا يتم بشكل آلي، بل عن فقه ودراية لمقصود الخطاب وهو ما يفهم من قول شعبة: "والإذن من قول ابن عمر".

عن أبي هريرة (ﷺ) قال: قال رسول (ﷺ): «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه –يُشير إلى رباعيته- اشتد غضب الله على رجل يقتله الرسول (ﷺ) في سبيل الله»(أخرجه البخاري، رقم3845).**

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اشتد غضب الله على من قتله النّبي (ﷺ) في سبيل الله، اشتد غضـــب الله على قوم دموا وجه النّبي (ﷺ)» **(أخرجه البخاري، رقم 3848).**

فالملاحظ في هذين النصين صورة أخرى لوصل القول بالقول، إذ أعاد ابن عباسي رضي الله عنهما قول الرسول (ﷺ) المروي عن أبي هريرة، كما لو كان من بنات أفكاره، وهذا التنويع من صور وصل قول الرسول (ﷺ) مرده وعي المخاطب الشديد بضرورة تبليغ خطاب النّبي (ﷺ) واستمراره، وهو ما يتجلى بوضوح في قول "أبي ذر": «لو وضعتم الصمصامة على هذه –وأشار إلى قفاه- ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النّبي (ﷺ) قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها» **(اخرجه البخاري، باب العلم قبل القول والعمل)**[*].

2- وصل الفعل بالفعل: تجـــدر الإشارة هنا إلى أن وصل المخاطَب فعل الرسول (ﷺ) بفعله يتعذر نقله دون خطاب، فهو نقل لفعل، إلا أنّه لا يتم ذلك إلا عبر الخطاب، ومن أمثلته ما روى سُويد بن النعمان قال: «خرجنا مع الرسول (ﷺ) إلى خيبر، فلما كنا بالصهباء دعا بطعام، فما أوتي إلا بسويق، فأكلنا، فقام إلى الصلاة فتمضمض ومضمضنا»**(أخرجه البخاري، رقم 5139).**

وعن ابن عباس قال: «كان رسول الله (ﷺ) يُعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرّك شفتيه فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول (ﷺ) يحركهما، وقال سعيد، أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾» **(أخرجه البخاري، رقم5).**

والملاحظ هنا، أن حرص المخاطَب الشديد على فعل ما يفعله الرسول (ﷺ) ينبع من عقيدة راسخة عنده، تتمثل في أن كل أفعال الرسول (ﷺ) لا تصدر عن هوى، إنّما هو وحي يوحى إليه من هنا نفهم أنّ سبب تحريك المخاطَب شفتيه لمخاطبين آخرين لم

يشهدوا الحدث- بالطريقة نفسها وهو ما يبدو فعلا جليا، اعتبار المخاطَب أفعال الرسول (ﷺ) بما في ذلك الجبلية منها، تحمل في عمقها حكما شرعيا، وهو ما يقتضي نقلها بأمانة، ليستمر إتباعها عبر الزمن.

3- وصل الفعل بالقول: هو ما يمكن تسميته أيضا بـ "تخطيب الفعل" ومن أمثلته النصوص الآتية:

- عن عبد الله بن مالك ابن بُحيْنَة: أن النّبي (ﷺ): «كان إذا صلى فرّج بين يديه، حتى يبدو بياض إبطيه»**(أخرجه البخاري، رقم 383).**

- عن المغيرة بن شعبه قال: «وَضَّأْت النّبي (ﷺ) فمسح على خفيه وصلّى»**(أخرجه البخاري، رقم381).**

ولعله من نافلة القول، أن مرد هذا النوع من الوصل، اعتبار المخاطب أفعال الرسول (ﷺ) حكما شرعيا، ويقتضي ذلك تحويلها إلى خطاب ليستمر ويصل إلى مخاطبين عبر الزمن، ولكن الجدير بالذكر، اعتبار كل أفعاله حتى الجبلية منها، حكما شرعيا –كما ذكر أعلاه- وهو ما يبدو جليا في حديث رواه عباد بن تميم، عن عمه: أنّه رأى رسول (ﷺ) مستلقيا في المسجد واضعا إحدى رجليه على الأخرى» **(أخرجه البخاري، رقم463)** ويؤكد هذا المعنى، إخراج مسلم الحديث في باب: إباحة الاستلقاء ووضع احدى الرجلين على الأخرى، برقم 2100.

4- وصل القول بالفعل: هو ما يمكن تسميته كذلك بـ "تفعيل الخطاب" ومن أمثلته الآتي:

- عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاما في حجر رسول (ﷺ)، وكانت يدي تطيش في الصّحفة، فقال رسول (ﷺ): «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، فما زالت تلك طعمتي بعد»**(اخرجه البخاري، رقم5061).**

- عن أيوب قال: سمعت عطاء قال: سمعت ابن عباس قال: «أشهد على النّبي(ﷺ) خرج ومعه بلال، فظن أنّه لم يُسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القُرْطَ والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه»**(أخرجه البخاري، رقم98).**

وهي نماذج تحيلنا إلى التقبل الشديد للخطاب، بحيث أنه يفعل به مباشرة بعد صدوره. غير أنّ هذه المستويات الأربعة في حقيقة الأمر مجرد إجراء منهجي، إذ قلما

نعثر عليها منفردة في الخطاب، من ذلك مثلا ما روي عن عبد الله بن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: «إن رسول (ﷺ) قد نزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستَقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة» **(أخرجه البخاري، رقم 6824)**. فقد اجتمع في هذا الحديث وصل القول، في قول الراوي: «"وقد أُمر أن يستقبل الكعبة" ووصل القول بالفعل، ويتجلى من خلال قول الراوي: "وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة"» **(أخرجه البخاري، رقم6824)**.

ومن صور ذلك ما روى موسى بن عقبة قال: رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من هذا الطريق فيصلي فيها، ويحدث أنّ أباه كان يصلي فيها، وأنّه رأى النّبي (ﷺ) يصلي في تلك الأمكنة» **(اخرجه البخاري، رقم 469)** فالمخاطَب هنا وصل الفعل بالفعل، إذ تحرى الأماكن التي كان يصلي فيها الرسول (ﷺ) لكنّه لم يكتف بالفعل، ووصل الفعل بالقول بحديثه عن فعل الرسول(ﷺ).

وعن عمران مولى عثمان بن عفان: أنّه رأى عثمان دعا بوضوء، فأفرغ على يديه من إنائه فغسلها ثلاث مرات، ثمّ أدخل يمينه في الوضوء، ثم تمضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاثا، ثم مسح برأسه، ثمّ غسل كل رجل ثلاثا، ثم قال: رأيت النّبي (ﷺ) يتوضأ نحو وضوئي هذا، وقال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه، غفر الله له ما تقدم من ذنبه**» **(أخرجه البخاري، رقم162)**.

يجتمع في هذا الحديث ثلاثة مستويات من الوصل هي:

- وصل الفعل بالفعل: ويتمثل في وضوء عثمان (ﷺ) نحو وضوء الرسول(ﷺ).
- وصل الفعل بالقول: فعثمان (ﷺ)، لم يكتف بالفعل، بل تكلم حوله في قوله: «رأيت النّبي (ﷺ) يتوضأ نحو وضوئي هذا...».
- وصل القول بالقول: ويتمثل في نقل قوله (ﷺ): «**من توضأ نحو وضوئي هذا...**»واللافت للانتباه في هذا الحديث، أن ربط المخاطَب بين المستويات الثلاث للوصل ينقل لنا المقام الذي ورد فيه الخطاب، إذ استحضر تفاصيل القول والفعل،

ويتضح هذا أكثر في حديث رواه أبو سعيد الخدري (ﷺ) قال: خرج معاوية (ﷺ) على المسجد فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم استحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول (ﷺ) أقل حديثا عنه مني. إن رسول (ﷺ) خرج على حلقة من أصحابه فقال: **ما أجلسكم؟** قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمد لما هدانا للإسلام ومنّعلينا به، فقال: **«آلله ما اجلسكم إلاّ ذاك؟»** قالوا: آ الله ما أجلسنا إلاّ ذاك، قال: **أما إني لم أستحلفكم لتهمة لكم، إنّه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة» (أخرجه الترميذي، رقم3379).**

إننا هنا أمام تحديث بحدث وحدث بتحديث، أو ما سميناه بتعبير آخر "تخطيب الفعل" و"تفعيل الخطاب"، فقد كان بالإمكان - لو أنّ الأمر يتعلق بوصل القول بالقول- الاكتفاء بآخر الحديث: «إن الله يباهي بكم الملائكة»، لكن إقامة الدين بإقامة خطابه يتطلب أكثر وأعمق من ذلك، أي أنّ المقام هنا من الخصوصية بحيث يتطلب تبليغه برمته حتى يبقى قائما دون انقطاع من هنا كان على معاوية (ﷺ) أن يربط بين وصل القول بالقول، ووصل القول بالفعل بأدق تفاصيله، فهو لا يكتفي بنقل القول، بل يفعله، وأكثر من ذلك، هو يجعل المقام يتكرر بأحداثه وشخوصه كما لو أنّه لا زال قائما.

نخلص مما سبق، أن علاقة الذات مع الآخر في الخطاب النبويي حدّدها الخطاب القرآني في التّبليغ، وتتجلى في مستوى أعمق من الفعل بالقول بحيث تَبلُغُ مداها حين يتمثّل المرسل إليه الرسالة ويؤدي بدوره التكليف، فيستمر الخطاب بعد غياب صاحبه.ويتضح من خلال هذه الدراسة مدى ملاءمة مدخل التّداوت لمقاربة الخطاب النبوي، بما هو خطاب لا يرتبط تحديدا بذات المتكلم بل هو خطاب لذوات لا يحدها الزمان والمكان (بلاغ للناس) إذ إن هذا المدخل يساعدنا على اختزال تلك العلاقات في نصوص الحديث المتشعبة المواضيع والواسعة المتن.

الهوامش:

1- إميل بنفنيست، **(عن الذّاتية في اللّغة) ضمن: لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية،** ترجمة: صابر جباشة، ط.1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2010، ص. 139.

2-م.ن، ص.137.

3- م.ن،ص.138.

4- فرانسواز أرمنكو، **المقاربة االتداولية،** نقلا عن: جاك فرانسيس، الحوارية، **أبحاث منطقية حول الحوار،** ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص. 74.

5- عبد الله صولة، **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،** نقلا عن: أوركيوني، **التلفظ،** ج. 1، منشورات كليّة الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، تونس، 2001، ص38.

6- حافظ اسماعيلي علوي، **الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة،** ج. 1، ط.1، عالم الكتب الحديث، **إربد،** 2010، ص.236.

7-علي الشبعان، **بحوث في البلاغة الجديدة: القضايا والتحولات من تقنيات الجدل إلى إيطيقا الاختلاف،** ط.1، مكتبة المتنبي، **الدمام،** 2012، ص.33.

8- فرانسواز أرمنكو، **المقاربة التداولية**،ص.85.

9- ينظر، م. ن، ص. 86.

10- ينظر، م. ن، ص. ن.

11- الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن، ط.1 دار ابن الجوزي،** القاهرة، ص.146.

12- العربي الذهبي، **شعريات المتخيل، اقتراب ظاهراتي،** ط.1، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2000، ص.138.

13- م. ن، ص. ن.

14- عبد الباسط لكراري، **دينامية الخيال، مفاهيم وآليات الاشتغال،** ط.1، منشورات اتحاد الكتّاب، المغرب، 2004، ص.266.

15- م. ن.، ص.267.

16- عز العرب الحكيم النباني، **الظاهراتية وفلسفة اللغة، تطوّر مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية،** إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003، ص.88.

17- م. ن.، ص.88-89.

18- ابن بطة العكبري، **الإبانة الكبرى لابن بطة**، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط.1، دار الكتب العلمية، **(د.ب)** 2002، ص.134.

19- محمد طاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997، ص.371.

20- ينظر: رشيد الراضي، **المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، ط.1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء**، ص.22.

21- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج. 24، ط. 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص.262